الباب الخامس

زكي اديب

بعض القصص التي كتب

obeikandl.com

قصة من اقاصيص القدماء

كانت (سيدا كورس) السورية أجمل فتاة أقلتها الأرض في زمنها . ولقد ولع بها سيز وستريس الاكبر ولعاً ملك عليه مناحي قلبه جمعاء . ولكن سرعان ما فاض قلبه بذلك الحب حتى سكب حبه لدى قدمي فتاة شركسية

أخذت برحاء الحب تحزّ في صدر سيدا حزًّا . وجعلت تعالج النفاذ الى قلب قد أغلق دونها اغلاقا ، وجعلت تفوّق من سهام النظرات السهم تلوَ السهم وهي تراها تتساقط مكسرة عند ذلك القلب الحديدي .

كانت تجلس في حديقة القصر — والحزن يأكل من قلبها — تترقب سير وستريس وهو يمر وهي بنظراتها المتلهفة تريد أن تستدرّ محبته وما كان ذلك الاّ ليزيد سيز وستريس قسوة عليها وتبرماً بها .

ضجر منها سيز وستريس ضجراً لم يطق معه السكوت فقال لها « ان كأس الحب التي شربناها معاً قد فرغت ولقد حطمتها فلم يبق لحبك عندي من أثر فهل لك أن تقصري عما تحاولين ؟ »

أجابت « من لي بمن يستطيع أن يشق ذلك الصدر ويستخرج منه ذلك القلب الذي قد امتلأ من حبك . ذلك القلب الذي أصبح وقفاً لك كم أود أن ألقيه عني ولكن ليس ذلك في طوقي »

ولما أيس منها قال لها «لاتكلميني بعد كحبيب . اني أنا الملك . وهأنا آمرك أن تغادري القصر . وأني قد أمرت لك بما تحتاجين اليه من النقود ومن الخدم . ولترجعي الى بلدك . وهناك — وأنت في نضرة الشباب — لاتعدمين رجلا يطلب يدك »

قالت « وهل لي ياسيز وستريس حياة في فراقك ؟ ياليت قلبي مطواع لارادتي . ولـكن قلبي لست أملك منه شيئاً ، وذلك القلب يحبسني عن الذهاب »

فتوعدها بالقتل فقالت « اني أود لو أن يطاوعني قلبي فأذهب . ولكن قلبي عصى »

فأمر سيز وستريس بقتلها . ولما وقعت على سيف الجلاد قالت « سواء اقتلتني أم أحييتني فلن أستطيع أن أحبس قلبي عن حبك . وحتى بعد موتي سوف تسمع ذلك القلب لاينقطع عن أن يلقي في أذنيك أنشودة الحب . »

أسلمت سيدا أنفاسها . فأمر سيز وستريس جلاده أن « ايت لي بقلب تلك المرأة لأرى كيف يكون الوفاء » . ولقد أوحت اليه ذلك الطلب حبيبته الشركسية ..

أتي اليه بقلبها فلم ير فيه سوى قطعة من اللحم صغيرة لاتفرق عن سائر القلوب ، ثم وهبه لحبيبته .

جنّ ليل ذلك اليوم فآوى سيز وستريس الى فراشه . وما كاد ينام حتى سمع في سكون الليل وهدوئه صوتاً يقول « لن تستطيع أن تحبسني عن حبك » . ثم نظر فرأى قلب سيدا في الفضاء ينبض نبضاً عالياً لاينقطع . ذهب ليمسك بذلك القلب ولـكنه اختفى من بين يديه . نام ثانية فسمع القلب يقول « لن تستطيع أن تحبسني عن حبك » فاستدعى الجند ليفتشوا عن ذلك القلب . ولـكن انى يجدوه ؟ وفي المرة الثالثة قام مذعوراً واستفسر من حبيبته عما فعلت بالقلب فقالت « لقد القيته للكلب » ذهبوا الى الكلب

فرأوه يلهو به ولا يأكله فمد سيزوستريس يده يلتقطه فعضه الكلب عضة قاسية . تقدم أحد الجنود فكان نصيبه كالاول . وأخيراً أمسك الكلب بعنف وأخذ القلب منه .

تلك قصة من أقاصيص المصريين القدماء أو هل أدرك أيها القارىء أن هناك قلباً يحبك بمثل ذلك الحب ؟

أو هل علمت أن هذا القلب قد حمل منك ما احتمل ذلك القلب ؟

تلك حقيقة اتركها بين يديك ، ولست بمطيق أن أقدر تأثيرها على نفسك . ولكني أخشى أن تدعها تتساقط - وقد قرعت أذنيك — غير آبه ولا مكترث . أخشى أن تمر هذه الحقيقة في فكرك كما تمر الاحلام العذبة ، وأنت تحسبها من الاحلام .

ولكن أيها القارىء . حين تخلو الى نفسك ، وحين لايقرع أذنيك ضجيج العالم حولك . انصت في سكون وهدوء تسمع ذلك القلب ينبض ولا يفتأ يلقي على مسمعك « لن تستطيع أن تحبسني عن حبك » . ولن ينقطع القلب عن سكب تلك النغمة في أذنيك مادام فيك نفس يتردد .

وان كانت أذناك قد ثقلتا عن السماع فلترجع بنفسك الى ذكرى الآلام التي قاساها ذلك القلب من أجلك — و بيدك . فلربما في هذه الذكرى ارهافاً لاذنيك .

على صليب الجلجثة مات يسوع . ولمَ مات ؟ وأي ذنب جنى ؟ أو لم يكن في مقدوره أن يعفي نفسه من الموت ؟ ولكنه مات — من أجل خطاياك . فلولا خطاياك لما مات . فخطاياك هي التي صلبته . واذن فهو قد مات

بسببك . واذن فهو قد مات بيدك . وطعنة الحربة التي نفذت الى صدره كانت طعنة من خطاياك . كانت طعنة من يدك .

الشوك الذي كلل به كانت به الخطية . خطيتك أنت . واذن . فأنت ضمين من عقدوا له ذلك الاكليل .

تأمل كم من الآلام احتمل من يدك . وفي كل تلك الآلام كان قلبه لاينقطع عن ترديد تلك النغمة « لن تستطيع أن تحبسني عن حبك »

جسمه المضني فُتحَت فيه أربعة جروح . وكلما نبض القلب أرسل الى تلك الجروح ألماً لايوصف وصرخ قائلا « لن تستطيع أن تحبسني عن حبك »

حمى شديدة انتابته، وعطش مذيب تحرق به . ولكن قلبه كان يصرخ من وسط اللهيب « لن تستطيع أن تحبسنى عن حبك »

ذلك الجسم المعلق قريباً من الأرض كان في متناول أيدي الضاربين ، وسخرية الساخرين . وفي كل ذلك كان قلبه يقول « لن تستطيع أن تحبسني عن حبك »

وأخيراً حين لبس القدوس ثوب خطاياك حوّل الآب وجهه عنه فصرخ صرخة مرة « أتتركني يا أبي »

ولكن قلبه كان يقول لك « حتى في ذلك لن تستطيع — »

ولكن ما جوابك لتلك المحبة أيها القاريء ؟؟

سل نفسك عن ذلك الجواب . ولكني أقول لك طالما أنت في خطاياك طالما أنت لم تخلص بدم ربك فانك تسخر من محبته

انك اذن تقول له « لقد خلعت المجد لألبس المجد أنا . وتركت السماء لأربح السماء . وكل ذلك من محبتك لي . ولكنك لن تستطيع أن تجذبني لحبك »

انك اذن تقول له « لقد متّ لأغتنم أنا حياة الابد . ولقد سال دمك الملكي الثمين ليكون مغتسلاً لي من الخطية والدنس. وكل ذلك من محبتك لي . ولكنك لن تستطيع أن تجذبني لحبك »

انك اذن تقول له « أنت القوي وأنا الضعيف . أنت الغني وأنا الفقير . أنت القاضي وانا المجرم. وأنت احببتني فضلا . ولكنك لن تستطيع أن تجذبني لحبك »

ربما تقول ان قلبا يجيب بمثل ذلك لهو قلب مقدود من الصخر لكنك تحس كل يوم بنبض قلب يسوع صارخاً لك : اني احبك . اني احبك .

حينما ترى زورق حياتك تتقاذفه الامواج العاتية . وتدفعه الرياح الثائرة ويهددك اليمّ بابتلاعه فاسمع من مهبط تلك العاصفة صوتاً خفيفاً منخفضاً يصرخ « اني احبك . اني احبك »

وحين يسير الزورق فوق المياه الهادئة الساكنة لا يقطع سكونها سوى صوت مجاذيفك . فاسمع من ذلك السكون قلب يسوع يقول « اني احبك. اني احبك »

حينما ترى زورقك تحيط به زوارق كثيرة ليس لها حصر ولا عد . وفي وسط ذلك الضجيج تسير مع السائرين فاسمع في وسط الضجيج صوتاً عذباً يناديك « اني احبك . اني احبك »

وحين ترى زورقك وحيداً في وسط ذلك المتسع الهائل فاسمع الصوت يناديك واضحاً جلياً « اني احبك اني احبك »

كل يوم ينبض قلب يسوع منادياً انه يحبك افهل تسعى الى ان تتخلص من ذلك القلب ؟ !

لو كان في استطاعة سيز وستريس ان يعيد الى سيدا حياتها لما احجم عن تقديم قلبه لها ولاخلص لها الاخلاص كله بعد ان وثق من وفائها .

وها يسوع حبيبك ايها القارىء الذي احبك ذلك الحب . واظهر لك ذلك الوفاء قد لبس الحياة مرة ثانية . أفلا تريد ان تخلص له .

انه يحبك وهو لايطلب منك سوى ان تفتح صدرك لذلك الحب ، وتقبل ما يفيض من حبه من النعم .

فهل تقبل حياة لنفسك من الموت الابدي ؟ هل تقبل غفرانا لخطاياك؟ هل تقبل نجاة من دينونة مريعة هائلة ؟

مـــرًا

— اسهروا وصلوا لان الوقت قريب . العلامات كثيرة . وويل لمن له الاعين وهو لا يبصر ! لقد سقطت أحجار ملتهبة من السماء ، والسماء ظلت حمراء ليلة بأكملها . اذكروا فيضان نهر التيبر، واذكروا الاعاصير التي عصفت فوق السهول ، واذكروا الوباء الذي أهلك في الخريف الماضي ثلاثين ألفاً من سكان رومة ، والمجاعة التي تلته ، والزلزلة التي قلبت نصف منازل بومباي الخليعة المنهتكة . ان الرب قريب !

بذلك كان يعظ الاسقف تيموثاوس وهو لابس ثوبه الاحمر ، وطاقيته الصوفية البيضاء . ولقد أصغى اليه المسيحيون ، وهم بوجهون اليه نظرات حادة ، ومنهم من خفض بصره ليعي ما يسمع من كلام الله . وكان هـذا الجمع من العبيد ، وصغار التجار ، والصنّاع ، وأناس في خفض من العيش . وكان المكان قبراً حقيراً اختاروه للعبادة . وكنت ترى على جدرانه نقوشاً تمثل النخيل ، والحملان ، والسمك والحمام . ومن سقف المكان تدلى قنديل نحاسي ضئيل أنار المكان،وأظهر رءوس الرجال العارية، ووجوه النساء المقنعة. ثم تابع الاسقف كلامه .

— اني أريد ان أقص عليكم رؤيا أرسلها الله اليّ . لقد رأيت امرأة خارجة من الماء جالسة فوق وحش. والمرأة متسربلة بالارجوان يزينه الذهب واللآلىء والاحجار الكريمة،وهي تمسك في يدها كأساً مملوءة بخمر نجاستها لانها زنت مع كل ملاك الارض . وكان الوحش مرعباً ، له جسم فهد ،

وأرجل دب ، وحنجرة أسد. وهذه الحنجرة استُنطقت تجديفات كثيرة ضد الله واسمه وهيكله وضد سكان السماء. وقال الناس « من مثل هذا الوحش ؟ ومن يقوى على الوقوف ضده ؟ » وعبده الجميع إلا الذين كتب اسمهم في سفر حياة الخروف المذبوح . . ولكن الرب آت ! .. ولسوف تطرح تلك الخداعة في البحر ، ويطرح الوحش في النار الابدية ، ولسوف يبني لنا الرب نحن مختاريه اورشليم الجديدة . . .

في تلك اللحظة كانت بنت صغيرة جالسة في الصف الاخير ، فاصغت بكل شوق وتلهف ثم سألت بصوت منخفض جارتها العجوز :

— حدثيني ايتها العزيزة ماميا . من هي الخادعة التي تحل في يده الكأس ، ومن هو الوحش المرعب . .

— ليس في فهم ذلك من صعوبة يا مرّا . ان المرأة هي رومة ، والوحش هو نيرون ولكن ليس ذلك مما يمكن ان يذاع . .

فاطرقت مرّا وانعقدت على حاجبيها سحابة بسيطة من التفكير والحزن بدأت الصلاة . صلى تيموثاوس وهو يمد يده الى طاولة وضع عليها الخبز والكأس ثم كسر الخبز ووزعه وبارك الكأس وأعطاها المتقدمين . بيد انه رفض ان يناول رجلين وامرأتين . ثم قال مشيراً لهم بأصبعه

— يا اخوتي ويا أخواتي. اولئك قد اخطأوا علانية ، وتوبتهم يجب ان تكون علانية . كورفينوس شوهد في عربة مع امرأة ساقطة ، وفولتيوس حضر ذبيحة للصنم في هيكل اسكلاب ، وماترنا ذهبت الى ألعاب المرسح ، وأكسيا ارتكبت خطية الزنا ـ هؤلاء الاربعة عليهم ان يصوموا إلا عن

الخبز والماء لمدة شهر ـ وفي تلك المدة يحرمون من الاشتراك على مائدة الرب. انني خجل من ان أذكر أمامكم مثل تلك الخطايا . . . فعلى قدر ما يقرب الوقت تزداد قداسة المؤمنين . ان الجسد هو عداوة لله ، والمراسيح والمشاهد هي من عمل الشيطان . والمسيحي الذي يحضر فيها ولو بجسده فقط يشترك مع يهوذا في خيانة سيده .والويل لمن استنار وهو يشترك مع الامم ! ان العالم محكوم عليه، فأية شركة لنا معه ؟ ولكن انتظروا الحكم الذي سوف يصدر

فاطرق كورفينوس وفولتيوس وماترنا . وتنهدت اكسيا

عند ذلك قام عجوز ـ هو الاسقف كالست ـ كان جالساً بجوار الطاولة. ومع تجعدات وجهه العميقة كانت عيناه في زرقتهما وصفائهما كعيني طفل . ثم قال لتيموثاوس

— دعني أتكلم . ثم قال لكورفينوس

— ما أمر الوصمة التي وصمت بها اخوتك ؟

فأجاب كورفينوس وهو شاب قوي قمحي اللون

— لقد اخطأت . وأنا مقر بذلك . ولكن هناك أياماً تبدو فيها السماء صافية والشمس في جمال ينسى الانسان سر السقوط والفداء . وفي ذلك رأيتني محمولاً بالرغم مني بشهوة الجسد . مرت امرأة ثم أشارت اليَّ فتبعتها وكأني نسيت ان لي نفساً. ولكن بعد السقوط حزنت حتى الموت . فتكلمت مع المرأة عن خلاص الرب . وعلى قدر ما كنت أتكلم كانت تبتعد عني وطلبت مني ان آخذها الى احد اجتماعاتنا .

ثم سأل الشيخ التائب الثاني : وأنت ؟

فولتيوس رجل متوسط العمر تبدو على سيمائه البساطة والاخلاص . فأجاب

— ان نسيبي الذي هو موثني أراد ان يقدم ذبيحة لاسكولاب لكي ينال شفاء زوجه . ولقد طلب مني ان أرافقه للهيكل . فخفت ان أظهر مسيحيتي ، وخشيت ان تغضب أختي فذهبت . ولكن لا أعتقد إلا ان اسكولاب شيطان . ولكني أقول ان المريضة شفيت بعد تلك الذبيحة بايام قلائل .

— وأنت يا ماترنا ؟ أذكري لنا خطيبتك

ماترنا فتاة في مقتبل العمر جميلة ، أجابت والابتسامق يملأ عينيها

— زوجي الذي لم أستطع ان أغيره للآن الحّ عليّ في الذهاب معه الى المرسح . لقد رفضت اولاً ولكنه غضب . فأتممت ما أراد حرصاً على سلام الاسرة ، واعترف ان حب الاستطلاع دفعني ايضاً ، لان الامبراطور نفسه كان عليه ان يحضر في ذلك اليوم في عربة تجرها ستة جياد

عند ذلك رفعت مِرّا رأسها . وكانت ترجو ان كالست يسأل ماترنا عن نيرون وعما شعرت عند رؤياه ، ولكن الشيخ نظر الى اكسيا .

— وانت يا بنيتي ، كيف استطعت ؟ . . . .

اكسيا طويلة هيفاء غطت وجهها بيديها وبدأت تبكي . اجابت وهي تهزها التنهدات :

— لقد أحببته

فتراجع كالست لحظة ثم قال :

— أهل تحسون بالمرارة في قلوبكم أنتما يا فوليتوس وماترنا على لهوكما وحبكما للاستطلاع الخبيث ، وانتما يا كورفينوس واكسيا على نجاستكما ؟ .

فاجاب الاربعة « نعم » . ولكن أكسيا ـ ولقد يكون ذلك لان التنهدات قد غصّتها،أو لانها كانت تطرد عنها ذكرى سيئة، تأخرت عنه في الجواب قليلاً . فقال كالست:

— اذن . فلتصلوا اسبوعاً أو أسبوعين اكثر مما أعتدتم ان تصلوا ، ولتحرصوا على مساعدة الضعفاء ، وغشيان المرضى . اذهبوا بسلام ولا تخطئوا بعد .

وبعد ذلك كأنه يقول لنفسه :

— نعم . ذلك ما قاله هو . اني أذكره . وأنا رأيته . . وكان كلما تكلم كالست وأظهر عطفه خمد الالم السري الذي كان يملأ قلبها . ولكن مع ذلك كانت لا تزال في قلبها بقية من القلق بعد الاجتماع حين اقترب كالست اليها وقال :

— ليحرسك الرب يا مرّا . ولكن يظهر عليك الحزن . فما بك ؟

— يا أبتي . ان لي أمراً أريد ان اكشفه . أفهل توبخني عليه ؟

— ان كان الامر كذلك فسيكون اول توبيخ يا مرّا

— اني أريد ان أعرف اذا كان الامبراطور نيرون على السفالة التي صوره بها الأب تيموثاوس

— آه ! يا بنيتي . اني لأجزع

— اذن عليّ ان أبغضه

— ليس علينا ان نبغض أي انسان . ولـكن فقط نبغض خطاياه

— واذا كان الامبراطور قد أحسن في وقت من الاوقات الى أبي فهل محظور عليّ ان اكون له شاكرة .

— على النقيض من ذلك . فاجابت مِرّا بعد اطراق

— ولـكن . هل يكون من الخطأ ان أرى الامبراطور ؟ عند ذلك انقلب ذلك الوجه الهادىء الى عبوسة وقسوة واجاب بحدة وغضب

— ان ذلك يكون خطية عظمى لاني باسم الله وبالسلطة المعطاة لي امنعك . أتفهمين يا مِرّا ؟

— سأطيع . ولـكنك لم تكلمني بمثل ذلك الغضب قط .

— اني لم أرد أن أسبب لك حزناً . وأنا أتكلم كذلك لاني أحبك قال ذلك وهو يمرر يده فوق شعرها . .

قالت مِرّا: اذن اعتمد عليّ ولا تخف من ان تثقل على كتفي فأنا قوية.

وسار الشيخ والفتاة كما سار اوديب وانتيجون . .

رسالة حياة على حافة الموت

او

طبّال الجيش يحتضر

نظر الطبيب الى الغـلام ، الذي كان على وشـك ان يبتر ساقه وذراعه ثم قال

لمَ ترفض الكلوروفورم يا بني ؟ اني ساعة لقيتك ملقى في ميـدان القتال ، ظننت ان لا فائدة من انتشالك ، لما رأيت عليك من الذهول وآثار الخور الشديد. ولـكن لما شهدتك تفتح عينيك الزرقاوين، جال بخاطري انه ربما يكون لك امٌ تفكر فيك في ذلك الوقت ، فلم أرد ان أراك تسلم انفاسك في الميدان ، وامرت بنقلك الى المستشفى . لقد سال منك الدم غزيراً ، ولن تقوى على ان تطيق العملية من دون الكلوروفورم فلتسمح لي ان أعطيك منه قليلاً !!... »

وضع الصبي يده في يد الطبيب ، وحدق فيه ثم قال « أيها الطبيب ، في يوم احد ، وانا في التاسعة والنصف من عمري ، سلمت قلبي للمسيح ، وتعلمت ان اعتمد عليه ، وأثق به ، وهو هو وحده قوتي ، هو يقف بجانبي ، ولن اتخذ من دونه مقوياً وأنت تبتر ذراعي وساقي !!... »

كان ذلك الطبيب يهودياً وكان يشتغل مع الجيش في الحرب الامريكية وكان الغلام طبالاً جرحت ذراعه في القتال جروحاً بليغة استلزمت بتر ساقه وذراعه .

عند ذلك نظر اليه الطبيب وقال « اذ لم يكن مما ذكرته بد أفلا تسمح لي باعطائك شيئاً من النبيذ »

فقال الغلام « وأنا في الخامسة من سني جئت امي مرة بجانب فراشي وطوقتني بذراعيها وقالت يا شارلي انا الآن اصلي ليسوع حتى لا تذوق الخمر قط . لقد عاش ابوك سكيراً ، ومات كما يموت السكيرون ، وقد وعدت الله انه ان كانت هذه مشيئته أن يجعل ذكره منذراً لاصحاب الخمور. وانا الآن في السابعة عشرة ولم أذق من الشراب غير الشاي والقهوة ، فضلاً عن أني ربما اقابل الهي عما قليل . أفهل تريد اني اقابله وجوفي مملوء من ذلك الشراب الكريه ؟...»

منذ ذلك الوقت لم يستطع الطبيب ان ينسى شارلي قط ، فان اشعة عينيه المملوءتين عذوبة قد نفذت منه الى مدخل قلبه ، وانى سار لم تفارقه هاتان العينان . وصوت شارلي الحلو كان يتردد في أذنيه ابداً وقد اعجب الطبيب من شارلي وولائه لخلصه ، واخلاصه لسيده المسيح — ولو أنه لم يكن ليؤمن به — اعجاباً ملك عليه مشاعره .

سأله الطبيب اليهودي — ولم يكن ليسأل أحداً هذا السؤال — « أتريد ان ادعو لك القسيس ؟ »

— « نعم يا سيدي »

فدعا له قسيس الجيش ، وكان يعرف شارلي ، لانه كان يتردد على اجتماعات الصلاة التي يعقدها . فصافحه ، وحياه احسن التحية ، ثم استفسر عن حاله ، فقال « اني على احسن ما أروم يا سيدي ، وقد قدم لي الطبيب

كلوروفورم فم اقبل . وقدم لي بعض الخمر فامتنعت »

— ربما لا تموت يا شارلي ، ولكن اذا دعاك الرب اهل هناك عمل أستطيع ان اقوم لك به ؟ »

— تفضل فادخل يدك تحت وسادتي وخذ توراتي الصغيرة ترَ فيها عنوان امي . ارسل وقل لها اني منذ فارقت المنزل لم أدع يوماً يمر بغير قراءة فصل من كلمة الله والصلاة الى الله حتى يباركها — سواء أكنت في وسط القتال أم في ساعات الراحة أم في المستشفى »

— « أليس هناك شيء آخر تكلفني به ؟ »

— « بلى ياسيدي ابعث لمدير مدارس الاحد بشارع (ساندس) ببروكلين. وقل له ان كلماته الحلوة وصلواته المشجعة، ونصائحه الغالية لم تبرح ذاكرتي قط . وحتى في وسط الخطر المحدق ، وحتى في ساعة موتي هذه ، اطلب من مخلصي ان يبارك ذلك الرئيس العزيز . هذا كل ما أطلبه منك»

ثم ادار وجهه الي وقال « ايها الطبيب الآن اني على استعداد . واني اعدك بألاّ تخرج من فمي كلمة انين حينما تبتر ذراعي ورجلي اذا لم تعطني شيئاً من الكلوروفورم ! . . . . »

وعده الطبيب بذلك ، ولكنه هل يستطيع أن يبر بوعده ؟ كيف يستطيع ان يقطع ذراع ذلك الغلام وساقه ، وهو كامل الشعور والادراك ؟

ولكن شارلي صمم على طلبه ، فما كان من الطبيب الا ان شرب هو بعض المنبهات ليشجع نفسه على القيام بتلك العملية

أخذ الطبيب مشرطه وصار يقطع لحم شارلي حتى وصل الى العظم وشارلي صامت لايبدي أنيناً !

أخذ الطبيب منشاره وصار يفصل عظم شارلي، فأخذ هذا طرف وسادته وادخله الى فمه، وقال بصوت منخفض «يا يسوع المبارك قف بجانبي الآن!» . . . وهكذا بر بوعده ولم يئن ! . . .

في ذلك المساء لم يذق الطبيب طعم الكرى فانه كان يسمع في سكون الليل صوت شارلي يتردد في اذنيه « يا يسوع المبارك قف بجانبي » فقام من فراشه بين منتصف الليل والساعة الواحدة في الصباح وذهب الى المستشفى — ولم يكن ليفعل ذلك قط الا اذا استدعي لامور خطيرة — ليرى شارلي وعند وصوله سمع ان ستة عشر جريحاً قد ماتوا . فسأل الوكيل « وكيف حال شارلي كولسون ؟ » — فأجاب «انه نائم نوماً عذباً كنوم الاطفال »

في ذلك المساء زار شارلي عضوان من نادي الشبان المسيحيين وصليا معه صلاة حارة ورتلا واشترك معهما شارلي على ما به من الالم الشديد ترنيمة « من يسوع المعتمد لاجئاً ارجو النجاة » ولاغرو فقد كان قلبه في وسط تلك النيران المتأججة طافحاً بسعادة علوية ليست من هذه الارض . . .

مضت خمسة أيام حضرت بعدها شارلي الوفاة فطلب الطبيب ولما جاء قال له « اني مدين لك بما أوليتني من الجميل ، وما اظهرته نحوي من كرم الخلق . . . ولكن لي شيئاً أهم : انك يهودي واني ارجوك ان تقف بجانبي في ساعات الموت هذه حتى ترى كيف يموت من وضع ثقته في مخلصه يسوع المسيح . . . »

وقف الطبيب قليلاً ، ولكنه لم يرد ان يتأثر بأي مؤثر مسيحي ، فخرج من الغرفة بعد قليل . ولكن شارلي ارسل وراءه ، فرجع اليه مرة اخرى فقال له شارلي « ايها الطبيب اني احبك لانك يهودي وأعز صديق لي هو يهودي »

فسأله الطبيب « ومن ذاك ؟ »

أجاب « يسوع المسيح الذي اريد ان اقدمه لك قبل ان اموت » أفتعدني انك لاتنسى كلامي هذا بعد موتي ؟ »

ولما وعده ، قال له شارلي «منذ خمسة أيام وأنت تقطع ساقي وذراعي، كنت اصلي الى الله حتى يغيرك ويجددك لتصير مسيحياً . فأخذ منه العجب كل مأخذ ، كيف وهو يؤلمه كل ذلك الايلام ، قد نسي ذاته نسياناً ، ولم يفتكر الا في نفس ذلك الطبيب ، وكان لكلماته الاخيرة عليه تأثير وأي تأثير — تأثير لم يمحه مر الايام ، وكر الاعوام . . .

مات شارلي فذهب الطبيب في مشهده ليشيعه ، ولم يكن قد ذهب ليشيع احداً غيره من بين اولئك المئات الذين يموتون في المستشفى . ورآه يدرج في كفن — هو علم الولايات المتحدة — وذرف عليه العبرات سخينة . . .

لقد وعد الطبيب شارلي ان يذكر ما قاله له ، وما كان يدري ان صلاته تستجاب بعد ثمانية وأربعين ساعة !

كان على الطبيب ان يرجع الى واشنجتن حيث تقيم أسرته ، وفي طريقه كان لابد له ان يعرج على نيويورك . ولما تخلف بها قصد دكان أحد

الحلاقين ليحلق ذقنه فرأى على جدرانها آيات معلقة ، ورأى امامه مكتوباً « لا تخف في هذا المكان »

أخذ الحلاق يحلق له ، وطفق يكلمه عن المسيح بفصاحة خلابة استرقت منه المسامع والقلب. فطلب هذا منه ان يقص له شعره، وبعد ذلك ان يغسل له رأسه . وما كان ذلك عن رغبة منه في قص الشعر أو غسل الرأس بل ليطول مكثه في ذلك الدكان ، فيطول حديث الحلاق العذب . ولما انتهى الحلاق ، خرج معه وقد كانت الارض يكسوها الجليد . ولما حان له ان يشيعه قال له « أتدري السبب الذي لاجله كلمتك عن المسيح ؟ انى رأيت من ملامحك انك يهودي ، ولقد كنت أنا يهودياً مثلك ، ولكني وجدت المسيا — يسوع الناصري، وبه نلت غفران خطاياي، وفيه اجد السعادة الكاملة»

قال ذلك وقدم له وريقة وطلب منه أن يكتب اسمه عليها ، واعداً اياه انه ان يدع جفنيه يذوقان الكرى حتى يصلي لاجله لمدة شهرين ثم شيعه

انتهى الطبيب الى واشنجتن ، وهناك اشترى جريدة يقرأها ، فكان اول ما وقع عليه بصره منها اعلاناً عن اجتماعات انتعاشية تقام في احدى الكنائس

لقد نشأ من صغره على مقت اسم يسوع «المحتال» وكل من له علاقه به، وما كان يخطر بباله قط ان يحضر اجتماعاً ما ، ولكنه انقاد الى تلك الكنيسة بجاذب خفي ، وجلس فيها في احد المقاعد الامامية . ومكث قليلاً ثم رأى عيني الواعظ مصوبتين نحوه ، فظن انه ينظر الى شخص غيره فأدار رأسه ليرى ، فاذا بكل العيون محدقة فيه ، فاراد ان يخفي العبرات الكثيفة

المتساقطة من عينيه وقد تندى جبينه خجلاً ولكنه لم يستطع وتركها تهمي كما يهمي السيل . . وكم ود اذ ذاك لو أمكنه الخروج من الكنيسة لشدة ما أحس به من الخجل ، سيما وانه كان معروفاً لدى اكثر الحاضرين لانه من اطباء واشنجتن المشهورين . ماذا تقول عنه الجرائد ؟ وماذا يتقول عليه الناس ؟ . . . .

ما كاد الاجتماع ينفض حتى اسرع الطبيب نحو الباب يريد الخروج وهو كذلك واذا بسيدة امسكت بطرف سترته — سيدة ممن عرفن كيف يخدمن المسيح ، ولهن في ذلك الاختبارات العميقة — وقالت له « اني لاحظتك من بدء الاجتماع ، ولقد لاحظت عليك علامات التأثر ، والانفعال ، الشديد ، والشعور بالخطية ، وأنت لم تنل منها خلاصاً . فلننتظر حتى تناله » ثم اردفت « فلنركع لنصلي »

فأجابها « لن اعبد من دون إله آبائي ابراهيم واسحق و يعقوب احداً »

فقالت « يسوع مخلصك هو اله آبائك ابرهيم واسحق و يعقوب »

فأجاب « اني لن اركع » فجثت هي تصلي لاجله قائلة «سواء أركعت ام لم تركع فان يسوع يستطيع ان يخلصك » ثم طلبت الى الله ان يجدده

رجع الطبيب الى منزله وقد بلغ منه التأثر كل مبلغ ، ولم يشأ لشدة ما شعر به من الانفعال ان يقابل زوجته ، فلما استفسرت عن حاله قال لها « عندي امور هامة اريد ان اخلو للتفكير فيها » ودخل مكتبه ، واغلق بابه ، وطفق يصلي مولياً وجهه شطر الشرق — نحو أورشليم كما كانت عادته طالباً من اله آبائه ابراهيم واسحق و يعقوب الرشد والهدى .

وهو كذلك ، واذا بنور سماوي اشرق عليه ، فأنار بصيرته ، وكشف له كثيراً من النبوات التي أشكل عليه فهمها من قبل عن المسيا المنتظر ، فشعر بالفرح يفعم قلبه ، ويملأ مابين جوانحه ملئا كاد يذهب برشده وصوابه ، فخرج من مكتبه ، ينبي زوجته بما رأى حتى تشاركه ذلك الفرح الاسنى قائلاً « لقد وجدت المسيا » فسألته « ومن هذا ؟ » قال « يسوع الناصري» فما كادت تسمع ذلك حتى لبست ثيابها وخرجت مسرعة الى منزل أبيها الذي كان يواجه منزلها يصحبها أطفالها

في ذلك اليوم اعتبره ذووه وأهله في عداد الاموات وأقاموا له حفلة تأبين . . . في ذلك اليوم قطعوا كل صلة بينهم وبينه . وما كان أشد تأثير ذلك عليه لاسيما فراق زوجته التي أخلص لها كل الاخلاص .

عُين الطبيب بعد ذلك مفتشاً في الاقاليم الجنوبية فترك واشنجتن ورحل الى الجنوب . ومن هناك كان يرسل كل يوم لزوجته خطاباً يضمنه عبارات المحبة والولاء والبقاء على العهد ، ويحضها بعبارات ملؤها الرقة لقبول المخلص الذي اغتبط بوجوده كل الاغتباط ولكن كل خطاباته كانت تمزق قبل أن تفتحها يدها ، وما كانت زوجته لتقرأ منها حرفاً . ولم يصله رد على واحد منها سوى خطاب من أمه حوى كل الشتائم المرة ، والسباب القاسي .

ولكن تدبير الله أوقع خطاباً من خطاباته في يد ابنته فعزمت هذه ان تقرأه لترى أصدقاً ما تسمعه عن أبيها أم كذباً . فدخلت غرفتها ، وأوصدت بابها وانشأت تقرأه المرة بعد الأخرى ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع السخينة ثم خرجت لتُري الخطاب لامها قائلة « أيستطيع رجل شرير أن يكتب كتابا

كهذا ؟ » فأخذت الأم الخطاب واختلت به ، وأخذت تتلوه مراراً ، متأثرة جد التأثر وختمت قراءته بالصلاة طالبة من الله الارشاد وانتهت من الصلاة وقد قبلت الرب يسوع مخلصاً لها

فأبرقت إلى زوجها ان احضر فاننا مسيحيون فلم يكد يقرأ تلك الورقة حتى شعر كأن قلبه انتزع من بين جنبيه لما اصابه من فرط السرور ، ولم يعبأ بما كان في يده من العمل ، وتركه وسافر في أول قطار ليقابل زوجته . ولما انتهى الى المنزل رآها منتظرة على الباب ، فقبلها وأطفاله قبلة حارة عميقة ، ورجع بها الى حيث كان عمله . وعاش مع أسرته عيشة مسيحية حقة ، يملك فيما بينهم ذلك السلام الذي يفوق كل عقل .

مضت مدة بعد ذلك وحدث انه كان ببروكلين فحضر أحد الاجتماعات التي تؤدي فيها شهادات عن اختبارات مسيحية نالها أولاد الله ، وحوادث أظهرت عنايته بهم . وفي ذلك الاجتماع وقفت سيدة تقص على الحاضرين ما عمله الرب مع ابن لها فقالت اني اشكر الله لان ابني مات موتاً مجيداً وذهب ليكون مع يسوع الى الابد . وقد انتهى الى أحد من القسوس انه في آخر لحيظات حياته كان يصلي الى الله حتى يجدد الطبيب اليهودي الذي كان يعالجه ، وان الطبيب قد تأثر من حياته المسيحية كل التأثير .

فلم يستطع الطبيب ان يتمالك نفسه بعد ، واخترق صفوف المجتمعين ، وذهب الى حيث كانت السيدة وصافحها قائلاً « ياسيدتي اني أنا الطبيب اليهودي . واني اليوم مسيحي استجابة لصلاة ابنك » ! .